الأسس الابستيمولوجية والمنطقية لنظرية المعرفة عند كارل بوبر

The Epistemological and Logical Basics of Popper's Theory of Knowledge

جمال الدين بن سليمان

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر) ، djameleddine.bensliman@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/04 تاريخ القبول: 2021/05/06 تاريخ النشر : 2021/11/06

الملخص:

يعد كارل بوبر من أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، لتميزه بابستيمولوجيا نسقية على أسس منطقية، ابستيمولوجية ومنهجية، مثل عقلانيته النقدية ونمو المعرفة وفلسفته التكذيبية. وعليه نحاول من خلال هذا المقال تبيان الأسس الابستيمولوجية والمنطقية التي بنى عليها بوبر نسقه في فلسفة العلم ونظريته في المعرفة؛ بداية من العقلانية النقدية، ومفهومه للمعرفة الموضوعية من خلال نظرية العوالم الثلاثة، ثم توظيفه لمفهوم الصدق ونزعة الخطئية، وكيفيه توظيفه للنقد والتكذيب لتكون ابستيمولوجيا متفتحة.

الكلمات المفتاحية: كارل بوبر – نظرية المعرفة – ابستيمولوجيا التكذيب – العقلانية النقدية – المعرفة الموضوعية.

Abstract:

Karl Popper is considered one of the most important philosophers of science in the twentieth century, due to his systemic epistemology based on logical, epistemological and methodological foundations, such as his critical rationality, the growth of knowledge and his falsificationism. Accordingly, through this article, we try to clarify the epistemological and logical foundations on which Popper built his philosophy of science and theory of knowledge. Starting with critical rationalism, and his concept of objective knowledge through the theory of the three worlds, then his use of the concept of truthfulness and the tendency of sinfulness, and how to employ criticism and denial to be an open epistemology.

Key words: Karl Popper – Theory of Knowledge - Falsification - Critical Rationalism - Objective Knowledge

---

المؤلف المرسل: جمال الدين بن سليمان، **الإيميل:** djameleddine.bensliman@univ-biskra.dz

مقدمة:

يعد كارل بوبر من أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، انطلاقا من تميز النظام النسقي الذي طرحه في فلسفة وتاريخ العلم، حيث جاء بناء هذا النسق بعناصر نابعة من طبيعة المعرفة الإنسانية النسبية، وطبيعة الذات العارفة الخطاءة؛ فكان ذلك على أسس منطقية ابستيمولوجية، لأن من شروط بناء النسق الاتساق المنطقي والمنهجي. وعليه فقد أخذ بوبر ذلك بعين الاعتبار منطلقا من العقلانية النقدية، كمنهج ملائم للمعرفة والذات العارفة، على أساس النزعة الخطئية ومنهج المحاولة والخطأ كما سماه هو، ثم تأطيره لمفهوم المعرفة الموضوعية ضمن نظرية العوالم الثلاثة، إلى مفهوم الصدق كمبدأ تنظيمي والذي بدوره يلاءم ويتناسق مع الشروط الابتدائية للنسق، ثم إلى توظيف التكذيب والنقد ليتناسب أيضا مع المعرفة الموضوعية وإمكانية نموها وتقدمها باتجاه الصدق. فكيف إذا كان بناء هذا النسق الابستيمولوجي في نظرية المعرفة عند بوبر؟

1. العقلانية النقدية كأساس ابستيمولوجي

إن العقلانية النقدية هي مدرسة فكرية ذات تقاليد مميزة، من أبرز روادها كارل بوبر، Noretta ،Ian Jarvie ،William W. Bartley ،Hans Albert ،Joseph Agassi Koertge، Alan Musgrave، David Miller، John Watkins، بالإضافة إلى فلاسفة آخرين ساهموا في تشكيلها، وأغلبهم طلبة بوبر، ولا زالت أقلامهم تزخر بالعطاء في شتى ميادين الفكر الفلسفي والابستيمولوجي. ويجسدها كلام بوبر بأنها ذلك الموقف الاستعدادي للإنصات للحجج النقدية والتعلم من التجربة؛ وهو بالأساس موقف الإقرار بأني قد أكون على خطأ، وقد تكون أنت على صواب، وبجهد ما، يمكن أن نصبح أقرب إلى الحقيقة (Irzik، 2008، ص 58).

تختلف العقلانية النقدية عن العقلانية التقليدية – الكلاسيكية في بعض المراجع – والتي يمثلها أفلاطون، ديكارت وغيرهم، في عدة أمور جوهرية، أولا: العقلانية التقليدية تجعل الأولوية للعقل قبل التجربة في اكتساب المعرفة؛ ثانيا: تقول أن العقل يبرر اعتقاداتنا، تقريراتنا ونظرياتنا؛ ثالثا: تؤكد على أنه من الممكن اكتساب معرفة يقينية، ثابتة، ذات أسس عقلية، بينما العقلانية النقدية تعترض عن كل ذلك، لا العقل ولا التجربة ذو أفضلية على الآخر في اكتساب المعرفة، ولا الاثنين معا كأساس ثابت لها؛ فهي موقف الاستعداد

لتصحيح الأخطاء، فيكون العقل هنا ملكة لدى جميع الأفراد، ولكن التفكير النقدي هو مسألة اجتماعية تنمو بها الملكة والمعارف بالتفاعل مع الآخرين (Irzik، 2008، ص 58). أي أن هاته الفلسفة البوبرية هي بناء نسقي يرسخ أفكاره المنهجية الابستيمولوجية، ويؤكد أولوية النقاش والطابع الجدلي للأفكار، ولاعصمة العقل الإنساني.

وبما أنّنا في هذا المقال بصدد بحث الأسس الابستيمولوجية والمنطقية لنظرية المعرفة عند بوبر لما فيها من جدّة بالنسبة للنظريات التقليدية، وذلك كون فلسفة العلم نشأت بشكل عام في إطار منطق تبرير وتحقيق المعرفة العلمية، بحيث كانت هذه المبررات إما من ناحية مصدرية المعرفة وإما من ناحية المنهج المتبع في تحصيلها أو كلاهما، وبخلاف ذلك أكّد بوبر بشكل مغاير على أنه لا يعتني بالتبرير وحدود الصدق، ولا يفتح أي باب للسؤال التقليدي حول مصدرية المعرفة بل هو يُعنى بمشكلة نمو المعرفة وكيفية تقدمها.

نظرية المعرفة عند بوبر

ينطلق بوبر كعادته في طرح أفكاره من مقدمات ليصل إلى نتائج، أي يولي اهتماما كبيرا لتأسيس كلامه وحججه منهجيا ومنطقيا، بعد عرضه للآراء السابقة إن وجدت ونقدها سواء بتأييدها أو معارضتها. وعليه فقد أقام فلسفته بشكل محوري حول خاصية جوهرية طبيعية للمعرفة وهي عدم عصمتها Fallibility، بحيث يمكن اعتبارها مسلمة أولى في النسق البوبري، أي أنّ صرْح العلم غير مستقر على حجر أساس ثابت مطلق، وكذلك هي الأسس التجريبية للعلم الموضوعي، فنظريات العلم مهما بدت راسية في بنائها إلا أنها فوق أرض هشة، بحيث تنزل أعمدة هذا البناء أسفل دون الوصول إلى أي قاعدة صلبة، وإذا نحن توقفنا عن سحب الأعمدة إلى الأسفل، فهذا ليس لأننا وصلنا بها أرضية صلبة، لكن ببساطة لشعورنا بالرضا بأن هذه الأعمدة قد ثبتت بما يكفي لحمل هذا البناء، على الأقل في الوقت الراهن (Gattei، 2009، ص 01).

ويستهل بوبر (a 2000)، (1995) كلامه في محاضرتين حول نظرية المعرفة، حيث جاءت الأولى بعنوان "في مصادر المعرفة والجهل" ضمن كتاب **حدوس وتفنيدات**، والثانية بعنوان "نحو نظرية تطورية للمعرفة" ضمن كتاب **عالم من النزعات**، لتبيان طبيعة هذه المعرفة، على أنها لا معصومة، وبأن الخطأ فطرة، وتجاوز في ذلك الأسئلة التقليدية حول

مصدريتها أو إمكانيتها التي تفترض صدقها القبلي بشكل ميتافيزيقي أو دوغمائي لاواعي؛ فهو يرى أنه حتى الحيوانات – بل جميع العضويات – لديها معرفة ما تتصرف من خلالها بأشكال معينة، وهنا نلمس واقعيته الابستيمولوجية، حيث يرى أن التساؤل حول هذا الموضوع هو كيف تتقدم وتنمو هذه المعرفة نحو الصدق؟ ويقول في بداية المحاضرة الأولى أن من المفروض أن يكون عنوانها مصادر المعرفة والخطأ، لأن الجهل لا مصدر له وهو غياب المعرفة، بل هناك مصادر للأخطاء، والمعرفة بطبيعتها ذات طابع فرضي (ص 03، 33-34). وهنا نميز التأسيس الابستيمولوجي لهذه المسلمة الأولى ضمن النسق.

ويرى بوبر (2000 a، ص 04) أنه بالرغم من أن كل منجزات الحضارة الغربية المعاصرة تدين في نشأتها إلى العقلانية الكلاسيكية – بطرفيها: التجريبية عند كل من Bacon، Locke، Berkeley، Hume، وMill؛ والمذهب العقلي عند كل من Descartes، Spinoza، وLeibniz – التي كانت الملهم الأعظم لكل تقدم فيها، إلا أنها سارت على خطأ تبرير اليقين والمعرفة الحقيقية، وتحديد المصدر النهائي لها أهو العقل أم الحواس، بحيث تكون مصداقية المعرفة مرهونة بهذه المصدرية، في حين أنه من المؤكد أن كلَّ المصادر ليس معصوما من الخطأ، وهو دائم العرضة له، وبهذا فالطرح المتعلق بمصدرية المعرفة خاطئ الأصل، مع أن كلا من المصدرين يلعب دورا مهما، فلا يهم هنا مصدرها وإنما المعرفة ذاتها ومحتواها ومدى مصداقيتها في الواقع وقدرتها على حل المشكلة المطروحة للبحث، فالسؤال الذي يحدّد البحث الابستيمولوجي ليس حول المصدر وإنما كيف نكتشف أخطاءنا ونستبعدها لكي تنمو المعرفة ونقترب من الصدق أكثر؟ وذلك إنما يكون بالعقلانية النقدية التي تشترك مع الكلاسيكية في تحرر الفكر من التسلط وحثّه على البحث عن الحقيقة (الخولي، 2000، ص 338-339).

إذن يمكن القول أن هذين المذهبين تخلصا من سلطتي الكنيسة والسكولائية ليقعا في سلطتي الملاحظة – التجربة – والأفكار الفطرية أو العقل، كمصادر قبلية أو بعدية لتبرير المعرفة، وبذلك فالاختلاف بينهما ضئيل ليس بقدر ما يتشابهان (Popper، 2000 a، ص 5-7). لكن بوبر تميز عن العقلانية الكلاسيكية بنوعيها والتجريبية الاستقرائية المعاصرة متأثرا بكانط، بأن المعرفة لا تقوم على شكل اعتقاد ولا فرض ولا نظرية نبررها أو نسعى إلى تحقيقها، لأنه يمكن أن يكون لهذه الاعتقادات الخاطئة أو النظريات من اللمعان ما يجعلها

تعيش آلاف السنين، فهذه الفكرة في حد ذاتها ظلت لقرون تشكل دعامة لتبرير المعرفة على أساس مصدريتها، وما هو إلا تعوُّد منّا لربْط الصدق بالمصدر ليصبح اعتقادا، وهذا هو الخطأ الأساسي لتلك الفلسفات، بأنها لا تميز بوضوح كاف بين مسائل الأصل وبين مسائل الصلاحية أو الصدق. فنحن لا نختبر صدق تقرير ما بتتبّع مصدره أو أصله، لأنه لا يكتسب شرعيته بمجرد الانتساب إلى أصل، وإنما تكون نظرية ما علمية إذا وفقط إذا كانت قابلة للنقد العقلاني وهو ما يقرر صدقها إذا صدقت ويستبعدها بخلاف ذلك (Popper، 2000 a، ص 24).

ويرى بوبر (2000 a، ص ص 27-29) أنه يمكنه صياغة نتائج ابستيمولوجية لهذه المناقشة في هذا الجانب من خلال النقاط التالية :

1- ليس هناك مصادر نهائية للمعرفة، وكل مصدر أو اقتراح مُرحّب به وهو مفتوح للفحص النقدي. باستثناء التاريخ، فنحن عادة ما نفحص الحقائق نفسها بدل مصادر المعلومة.

2- إن التساؤل الابستيمولوجي الصحيح لا يُعنى بالمصدرية أو الأصل، بقدر ما يهتم بصحة وصدق تقريراتنا -فروضنا- ومدى اتفاقها مع الوقائع... ثم ننظر في مدي تحقق هذا الاتفاق، باختبار أو فحص الفروض في ذاتها بشكل مباشر، أو باختبار نتائجها.

3- في إطار هذا الفحص، قد تكون كل أنواع الحجج ذات صلة. لكن الإجراء النموذجي هو أن نفحص ما إذا كانت نظرياتنا متناسقة مع ملاحظاتنا. كما يمكن أن يتعدي الفحص إلى مدى تناسق مصادرنا داخليا وفيما بينها.

4- تُعدّ المعارف السابقة - أو التقاليد- أهمّ وأكبر مصدر لنا كما وكيفا، فبعيدا عن استعداداتنا الفطرية للمعرفة، فأغلب ما تعلمناه كان من الأمثلة والخبرة أو بقراءة كتاب، حتى كيفية ننتقد أو نأخذ ونقبل النقد، ونحترم الحقيقة.

5- إن حقيقة أن أغلب معارفنا تقليدية تدين التقليدية بالعقم. لكن لا يجب أن يؤخذ ذلك لدعم الموقف التقليدي. على أن كل ذرة من هذا الإرث المعرفي حتى الفطرية منها مفتوح دائما للنقد بحيث يمكن التخلّي عنه يوما ما.

6- إلا أنه لابد من النقد لتتحرك عجلة العلم، فالمعرفة لا تبدأ من لاشيء ولكن تقدُّمها يتضمن بشكل رئيسي تغيير أو تعديل معارفنا السابقة.

7- الابستيمولوجيا بنوعيها المتفائلة (العقلانية الكلاسيكية والتجريبية) والمتشائمة (الشكيون) كلاهما مخطئ –في تصوره للصدق- في حين يُعتبر الصدق مثالا أفلاطونيّا، فليس هناك معيار في متناولنا بحيث يمكننا تعيينه، ولكن يمكن إذا كنا محظوظين أن نعرف أخطائنا ونستبعدها لتُنير طريقنا ونقترب من الصدق. إن الوضوح والتميز ليس معيارا للصدق، في حين يمكن أن يدل الغموض والالتباس على الخطأ. وبالمثل فإن الاتساق لا يمكن أن يؤسس الصدق لكن اللااتساق يمكن أن يبين الخطأ.

8- ليس للتجربة والملاحظة ولا للعقل أي سلطة، إذ أن الحدس العقلي والخيال أكثر أهمية، ومع أنه لا يمكن الوثوق بهما إلا أنهما أهم مصدر أولي لنظرياتنا، بل إن أهم وظيفة لكل من الملاحظة والتعقل والحدس والخيال، هي مساعدتنا في الفحص النقدي لفروضنا واكتشاف المجهول.

9- يجب أن لا نترك أنفسنا عرضة للوقوع في متاهات مشاكل اللغة والمعاني التي لا طائل منها، فهي فقط تحيدنا عن جادّة ما نحن بصدد حله من إشكاليات، لذا يجب تجنّبها وعدم الخوض فيها كونها لا تستحق العناء، وحري بنا أن نوفّر ذلك الجهد للمشكلة التي نريد حلها.

10- حل كل مشكلة ينتج عنه مشكلات جديدة بحاجة هي الأخرى إلى حلول، فكلما ازدادت المشكلة الأساسية صعوبة زادت الجسارة في محاولة حلها، وكلّما علِمنا أكثر حول عالمنا زاد وعينا بما لا نعرف، وكانت معرفتنا المحدودة هي مصدر إدراكنا لجهلنا اللامتناهي.

إذن، فالمشكلة الابستيمولوجية الأولى في هذه الظروف هي نمو وتقدم المعرفة، ليكون منهج بوبر من جنس الموضوع، هو التكذيب، أي عندما نعرف أخطاءنا، فنحن بذلك نقلل من احتمالها ونزيد من احتمالية الصدق، أي نكتشفه قبل أن ينكشف لنا، وهذا جانب استراتيجي منهجي لربح الوقت وليس فقط للاتجاه نحو الصدق.

1.2 نظرية العوالم الثلاثة والمعرفة الموضوعية

لا يتكلم بوبر في جميع مؤلفاته – سواء مقالات أو كتب– عن المعرفة الموضوعية إلا بمعية نظريته – الميتافيزيقية – حول العالم الثالث أو بالأحرى العوالم الثلاثة للمعرفة، وكيفية تداخلها وتفاعلها مع بعضها البعض، بحيث كان مفهومه للمعرفة الموضوعية وكيفية نموها أو تقدمها لا يفهم إلا في ظل هذه النظرية.

1.1.2 نظرية العوالم الثلاثة للمعرفة

بعد تناول بوبر خلال ستينيات القرن الماضي للموضوع وتأكيده على خاصية الموضوعية في المعرفة جعله يطوّر نظرية العقل الموضوعي أو نظرية العالم3*، التي من خلالها يميّز بين ثلاثة عوالم، " أولا: عالم الموضوعات أو الحالات الفيزيائية، وثانيا: عالم حالات الوعي أو الحالات العقلية، وربما الاستعدادات السلوكية لأي فعل، وثالثا: عالم المحتوى الموضوعي للفكر، وخصوصا الأفكار العلمية والأعمال الفنية "(Popper، 1994، ص106). وفي محاضرة أخرى يسهب بوبر في شرح هذه العوالم الثلاثة وتفاعلها حيث يقول: " إننا نعيش في عالم أجسام فيزيائية ونحن بذواتنا لدينا أجسام مادية. فأنا عندما أتكلم فأنا لا أقدم نفسي لأجسادكم ولكن لعقولكم، إذا فبالإضافة للعالم الأول، عالم الأجسام المادية وحالاته الفيزيائية والفيزيولوجية، الذي سأسميه "العالم1"، يبدو أنه يوجد عالم ثان، عالم الأحوال العقلية أو الذهنية، والذي سأسميه "العالم2". وبذلك يتبادر التساؤل حول العلاقة بين هذين العالمين... وهو ما أسميه إشكالية جسد–عقل. لكن خلال تكلمي معكم في المثال الأول، فأنا افتعل نوعا من الفوضى التي هي حوادث فيزيائية يمكنكم استشعارها بمساعدة آذانكم... ولكن ليس فقط استشعارها بل وفك شفرتها، حيث تسمعون أصوات ذات معان فتكون هذه الأمواج الفيزيائية تحمل معان إليكم، والتي ربما تحفز التفكير لديكم. بعبارة أخرى، إن عقلي الآن يعمل على جسمي الذي ينتج أصواتا فيزيائية التي بدورها تعمل على أجسامكم؛ أي آذانكم، فتعمل أجسامكم على عقولكم وتجعلكم تفكرون. وهذا ما يسميه

* وردت بهذه الكتابة في كتابات بوبر كما وردت بالأحرف أي "العالم الثالث"، وقد اخترنا العالم3 لتجنب الاختلاط بأي معنى آخر مثل المعنى الاقتصادي الجغرافي.

ديكارت وأتباعه التفاعل المتبادل بين الجسد والعقل، والذي قد أسميه أنا التفاعل المتبادل بين الحالات الفيزيائية والحالات العقلية أو الذهنية.... ولكني أتجاوز هذه الثنائية الديكارتية إلى عالم ثالث أسميه "العالم3"... والذي أعني به عالم منتجات عقولنا. التي هي أحيانا أشياء فيزيائية مثل النقوش، المباني، الرسوم، وقد تكون أيضا ضمن العالم1، وأحيانا تكون المنتجات غير فيزيائية بمعنى ما مثل القصائد، النظريات، السيمفونيات... لا يمكننا فهم العالم2، المأهول بأحوالنا الذهنية، بدون فهم أن وظيفته الأساسية هي إنتاج موضوعات العالم3، ويعمل بموجبها أيضا. فالعالم2 لا يتفاعل مع العالم1 فقط كما يظن ديكارت بل أيضا مع العالم3 كما يمكن لموضعات العالم3 أن تعمل على العالم1 فقط من خلال الوسيط العالم2 وتلك هي وظيفته" (Popper، 2000 b، ص04-07).

ويشرح Gattei (2009) هذه المقاربة الميتافيزيقية الابستيمولوجية بأن العالم الأول يتكون من الموضوعات المادية؛ فيزيائية، كيميائية وبيولوجية، والتي يمكن إدراكها حسيا، مثل الطاولات والأشجار والحيوانات، وهذا العالم موضوعي لأن مكوناته تدرَك من طرف الآخرين أيضا، وهو مستقل لأن وجوده لا يتوقف على إدراكنا له؛ أما العالم الثاني فيشمل كل تجاربنا النفسية وحالات الشعور من ذكريات وأماني وأحاسيس وهو عالم ذاتي لأنه لا يمكن لشخص إدراك الحالات الذهنية أو الشعورية لشخص آخر، وهو غير مستقل لأن وجوده يعتمد على العقل الذي يختبِر موضوعاته، ولا يمكن أن يوجَد خارج العقل، أما ما يوجد من موضوعات عقلية أخرى مثل الكلمات والعبارات والنظريات والأرقام والأشكال والسيمفونيات- وإن وجدت في بعض الأحيان على حالات فيزيائية، مثل الكتاب أو اللوحات الفنية- فهي تتعارض مع مواضيع العالم1، وهي موضوعية فلا يمكن أن توجد في العالم2 الذاتي، وهي مستقلة على الرغم من أنها منتجات لعقل بشري، فبمجرد أن تخرج من الذات صارت موضوع إدراك تام من طرف العقول أو الذوات الأخرى، إذن، فمثل هذه الموضوعات تنتمي إلى عالم آخر هو العالم3، الذي يشمل كل ما ينتج عن العقل الإنساني – والحيواني- مما يتناوله النقد في محتواه المنطقي والموضوعي(ص ص.57-58).

ولا يتمتع العالم3 بالوجود فقط، بل إن بوبر (1994) يجعله في علاقة تداخل أو تفاعل مع العالمين الآخرين، كما يؤكد استقلاله عن الذات، وأن بإمكانه النمو والتطور، حيث يرى ذلك من منطلق بيولوجي، ويلخّص علاقة التداخل هذه في فيما يلي:

1- إن موضوعات العالم3 هي موضوعات مجردة، ومع ذلك هي حقيقية، لأنها أدوات أو وسائل فعالة لتغيير العالم1.

2- يمكن لموضوعات العالم3 أن تؤثر على العالم1 فقط من خلال تدخل العقل البشري الذي هو صانع العالم3، وعملية الإدراك هذه أو الفهم لهذه الموضوعات، هي عملية تنتمي للعالم2، فهي إجراء عقلي، من خلاله يتفاعل العالم2 والعالم3.

يقول بوبر (1994) عن نظرية العالم3 هذه أنها تشبه إلى حدّ كبير نظريات الفلاسفة التعدّديين مثل نظرية المُثل الأفلاطونية، ونظرية الروح المطلقة أو الموضوعية لهيغل، لكن ومع ذلك هي نظريته تختلف جذريا في بعض المناحي، فالمُثل الأفلاطونية ثابتة وخالدة بينما موضوعات العالم3 البوبري قابل للنمو والتطور والخطأ والتصحيح والتنقيح، ونمط التطور في الجدل الهيغلي قائم على التناقضات، بينما هو إزالة الأخطاء عند بوبر، كما يختلف العالم3 عن الروح الهيغلية والأفكار بالمعنى الذاتي، ويقول بوبر أن فكرة العالم الثالث قريبة الشبه من نظرية بولزانو Bolzano في عالَم العبارات في ذاتها والحقائق في ذاتها، وهي أقرب من نظرية فريجه Frege في عالم المحتوى الموضوعي للفكر ويكون الاختلاف ابستيمولوجيا وهنا يقول بوبر أن هذه النظرية تساعد على التمييز وفهم خاصية الموضوعية بالنسبة للمعرفة لذلك فلا يجب تناولها بجدية تامة (ص.106).

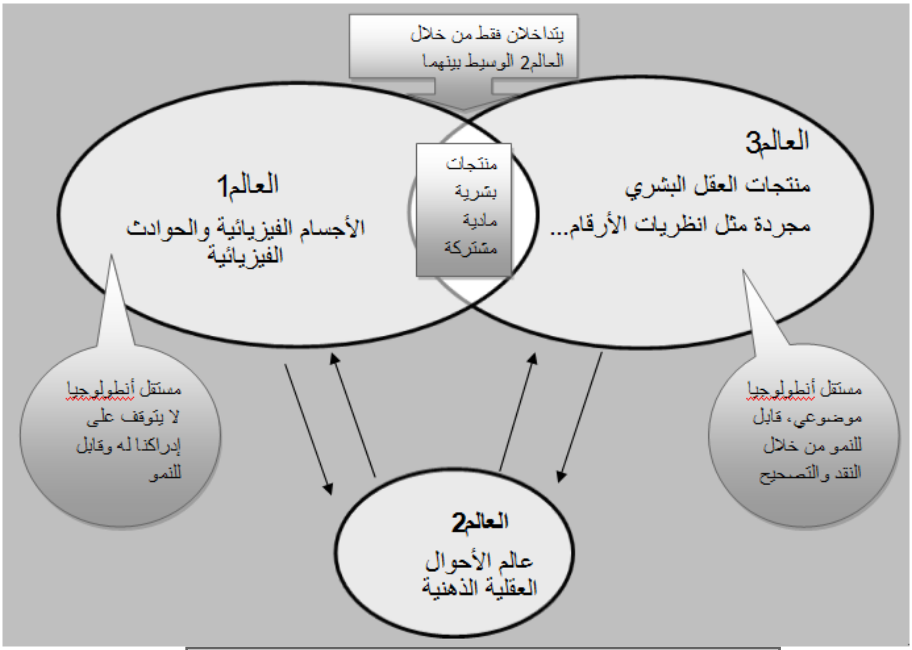

شكل1– رسم توضيحي للعوالم الثلاثة للمعرفة وعلاقاتها عند بوبر. من إعداد الباحث.

2.1.2 المعرفة الموضوعية

رأينا أن بوبر يسمي فكرته بالنسبة للعوالم الثلاثة بمشكلة الجسم – عقل، ويدرج مشكلة أخرى يسميها بمشكلة وجود نوعين اثنين من المعرفة والعلاقة بينهما، حيث يرى أن العلاقة بين الموضوعين على درجة من الأهمية ويقول : "المعرفة الموضوعية في حد ذاتها تنتمي إلى العالم3، وهي تشكل بيولوجيا الجزء الأكثر أهمية من العالم3، وهو جزء ذو أثر بالغ على العالم1. إن المعرفة الموضوعية تتألف من التخمينات، الفرضيات، أو النظريات التي عادة ما تنشر على شكل كتب، مجلات، أو محاضرات، كما تتضمن أيضا المشكلات التي لم تحل بعد، والحجج لتأييد أو تفنيد النظريات المتنافسة، ولذلك من الواضح أنها تشكل جزء المنتجات العقلية من العالم3، فيكون نمو المعرفة الموضوعية نموا للعالم3، فيكون تطور

العقل من تطور العالم3، وهذا الأخير من تطور المعرفة الموضوعية" (Popper، 2000 c، ص10).

ولكي يميز بوبر المعرفة الموضوعية كنتاج عقلي –مثل الفن الذي هو أيضا من نتاج العقل– يركز على فكرة أساسية، تتمثل في أن الأفكار تكون موضوعية إذا كانت قابلة للنقد، أي مستقلة عن أيّ ذات، ويميّز بين نوعين من المعرفة ويوضح ذلك كما يلي:

1– معرفة أو فكر بالمعنى الذاتي، و هذا النوع يتضمن الحالات العقلية أو حالات الوعي وكل الاستعدادات والترتيبات لأي تصرف أو رد فعل، وهو نوع من المعارف يتهرب من النقد في أغلب الأحيان، بل لا يمكن أن يكون عرضة له، مثل الأحاسيس، والاعتقادات (Miller، 1987، ص60).

2– معرفة أو فكر بالمعنى الموضوعي، تتكون من الإشكاليات العلمية والنظريات والحجج، ويؤكد بوبر أنها بهذا المعنى مستقلة عن أي تصريح أو ادّعاء أيّ شخص المعرفة، كذلك هي مستقلة عن اعتقادات أي شخص، أو استعداد للموافقة أو الإجماع أو التصرّف، إن المعرفة بالمعنى الموضوعي معرفة بدون ذات عارفة (Popper، 1994، ص108)، ويميز بوبر هنا المحتوى المعرفي الموضوعي بعيدا عن التصرف الذاتي عند التفكير. كما أن الصياغة اللغوية هي وحدها القادرة على نقل النظريات من ميدان الذات إلى ميدان الموضوعية والمنطق، لأن العالِم الموضوعي يُعنى بالمحتوى المعرفي والمنطقي للقضايا، ولا يُعنى بالاعتقادات الذاتية، فليس قولي **أنا أعرف أن الثلج أبيض** موضوعي كقولي **على ضوء البيانات المتاحة لي، يمكن القول أن الثلج أبيض** (Popper، 1994، ص141).

وهذا ما جعل بوبر يعتبر كل الفلسفات التي تنطلق من فكرة الصدق سواء كان مطلقا أو احتماليا بأنها فلسفات ذاتية دوغمائية لم تتحرر من النزعة السيكولوجية والاجتماعية، لأنها مؤسسة على معطى ذاتي وهو الاعتقاد بصدق المصدر (مذبوح، 2009، ص100)، تتناول المعرفة أو الفكر بالمعنى الذاتي، سماهم بوبر (2005 a) بفلاسفة الاعتقاد أو التبرير، مثل Descartes، Locke، Berkeley، Hume، Kant، و Russell، ويشير هنا إلى استعمال العبارات مثل: أنا أعتقد، أنا أفكر... – التي تنتمي إلى العالم2 – في حين أن

المعرفة الموضوعية تهتم بالمحتوى المنطقي للنظريات أو الفروض أو التخمينات أو الإشكاليات أو الحجج، أي القابلة للنقاش، التي يمكن أن تُعرَض على العقلانية النقدية ويُمكن أن تُختبر، فهي لا تقتصر على الجانب الذاتي فقط (Popper، b2005، ص108).

2. **نظرية الصدق الموضوعي واستعمال بوبر لنظرية تارسكي**

انطلاقا من مفهوم الموضوعية عند بوبر، والتي لا تعني الصدق المطلق أو اليقين بقدر ما تعني القابلية للنقد، فمع أنها تنبع من عقول الأفراد إلا أنها تكتسب وجودا مستقلا وموضوعيا بمجرد نشرها للآخر، فتصبح بذلك متاحة للفحص والنقد والاختبار وتكون قابلة للنمو لأنها جزء من العالم3 الموضوعي (Simkin، 1993، ص59). ونلاحظ هنا أن بوبر في طرحه لأسسه الابستيمولوجية يراعي جيدا مدا اتساقها من ناحية المفهوم ومن ناحية تطبيقها حتى يكوّن بذلك نسقا خاليا من التناقض، فتبدو بذلك فلسفته العلمية مترابطة الخطوات، يتصل فيها كل جزء بالجزء الآخر، أو أنها أجزاء كل جزء فيها يمثل الكل، أو يمكن أن نبدأ من أي نقطة منها، لنصل إلى أيّ نقطة فيها، فهنا مثلا نرى أن موضوعية المعرفة ترتبط بمفهوم الصدق؛ وهو ليس غاية يمكن إدراكها، بل متعال يمكن فقط الاقتراب منه باستبعاد أخطائنا بالتكذيب والنقد العقلاني، حيث يكون التنافس بين الفروض في الاقتراب من الصدق تطوريا يكون البقاء فيه للأصلح، وهكذا تنمو معارفنا باستمرار لأنها مؤقتة بهذا المعنى، حتى نكتشف فروضا أخرى أكثر تفسيرا وملاءمة للوقائع وأقرب للصدق.

كرر بوبر (1996)، (1997) خلال مؤلفاته عبارة يبدو أنه يلخص فيها نظرته الابستيمولوجية حيث يقول "قد أكون أنا على خطأ، وقد تكون أنت على صواب، وبجهد ما يمكن أن نقترب من الصدق" ويعني أنه لو يكون أحد أطراف النقاش على صواب فذلك لا يعني الصدق المطلق ولكن آني فقط، إلى أن يثبت خطأه، بمثابة مثال أفلاطوني متعال يوجه عملية البحث دون أن يدركه الباحث، وهنا تكمن قيمته الوظيفية، حيث يكون السعي إليه وطلبه ذو قيمة إذا وفقط إذا كان يدفع المعرفة الإنسانية للتقدم وليس لأن تستقر على حقيقة ثابتة نهائية، وعلى هذا الأساس كان كبلر أقرب من كوبرنيكوس في حركة الكواكب، وكان نيوتن أقرب من كبلر وهكذا، وبالتالي فإنه حتى وإن كانت فكرة الاقتراب من الصدق هذه ذات طابع مثالي إلا أن بوبر قد أعطاها توظيفا منهجيا ابستيمولوجيا ومنطقيا.

ومن منطلق أن هدف العلم هو البحث عن الحقيقة أو الصدق، يشرح بوبر نظريته في الصدق ويتبنّى نظرية التناظر أو التطابق في الصدق عند تارسكي Alfred Tarski (1902–1983) الذي حاول إعطاء تعريف مرض لكلمة الصدق بحيث تكون مناسبة ماديا وصحيحة صوريا، ويقول أن صدق عبارة ما يتألف من اتفاقها أو مطابقتها للواقع (Keuth، 2005، ص141)، ويميز تارسكي بين اسم الجملة والجملة ذاتها، ويعرف تارسكي السيمانطيقا بأنها العلم الذي يهتم بدراسة العلاقات بين التعابير اللغوية والموضوعات التي تحيل إليها تلك التعابير، وإذا كانت تلك الكلمات تعبر عن العلاقات بين التعابير اللغوية والموضوعات التي تشير إليها، فإن كلمة "صدق" من طبيعة منطقية مختلفة: فهي تدل على خصائص بعض العبارات أو الجمل، حيث أن هذه الكلمة لا تكتفي بالإحالة إلى العبارات ذاتها بل تستحضر أيضا الموضوعات التي تشير إليها تلك العبارات، ولذلك فإن تحديد مفهوم الحقيقة تحديدا دقيقا يتطلب استعمال المفاهيم السيمانطيقية كمفهوم "الاستيفاء"و"الإحالة" و"الصدق"، ويندرج مفهوم "الحقيقة"، من وجهة النظر هذه، ضمن الجهاز المفاهيمي السيمانطيقي، ولا يمكن فهمه بالتالي، إلا من خلال ربطه بمبادئ وأسس النظرية السيمانطيقية (أغبال ، 2007).

ولا يتأتى تعريف الحقيقة تعريفا دقيقا إلا من خلال تحديد البنية الشكلية للغة، وصياغة عباراتها صياغة شكلية مثلما هو الحال في لغة المنطق. هذا بالإضافة إلى ضرورة تجاوز اللغة المنغلقة، والوعي بوجود لغتين مختلفتين للتعبير عن الوقائع والقضايا من أجل تفادي الوقوع في مفارقة الكاذب the antinomy of the liar، وهما:

1. اللغة–الموضوع أو لغة المستوى الأول، وهي اللغة التي نتحدث عنها أو التي تشكل موضوع حديثنا. ولا ينطبق تعريف الحقيقة إلا على الجمل التي تتشكل في إطار هذه اللغة.

2. اللغة الفوقية meta–language أو لغة المستوى الثاني، وهي اللغة المستعملة للحديث عن اللغة الأولى. تستعمل عبارات اللغة الفوقية لتحديد مفهوم "الحقيقة" الذي يطبق على الجمل التي تصاغ في إطار اللغة–الموضوع (أغبال ، 2007).

ويمكن القول بصفة عامة، إن كل لغة نتحدث عنها فهي لغة–موضوع، وكل لغة نستعملها للحديث عن لغة أخرى فهي لغة فوقية، ويرى تارسكي أن صدق القضايا لا يتحدد

في إطار اللغة المستعملة للتعبير عنها، بل يتحدد في إطار لغة أخرى. فإذا صيغت القضية في لغة "ل" التي هي اللغة–الموضوع، فإن تحديد دلالتها لا يتحقق إلا بواسطة لغة أخرى "م" وهي اللغة الفوقية؛ ولذلك وجب أن تشتمل اللغة "م" على نسخة من اللغة "ل"، بحيث تكون اللغة (م) قادرة على التعبير عن كل ما تعبر عنه اللغة (ل)، وتكمن وظيفة اللغة الفوقية "م" في صياغة قضايا اللغة الموضوع "ل" صياغة شكلية من خلال إظهار مبادئها وعلاقاتها الشكلية (بغض النظر عن مضمونها الدلالي)، ولكن غنى اللغة الفوقية، بالمقارنة مع اللغة–الموضوع، يتوقف، في المقام الأول، على امتلاكها لأدوات منطق أرقى من المنطق الذي يتخلل اللغة–الموضوع، وهذا هو الشرط الضروري لتحديد مفهوم الحقيقة (أغبال ، 2007).

وبذلك تكون فكرة الصدق –على أساس نظرية تارسكي– عند بوبر ترجيحية فنختار النظرية الأكثر مطابقة للواقع، وتصبح وظيفة العلم هنا تقديم تفسير مُرض عن العالم، ويتفاوت هذا الإرضاء حسب النظرية الأكثر مواءمة للواقع، وهو ما يسمّيه بوبر برجحان الصدق (Verisimilitude)* (Popper، 2000a، ص 223). ويَعتَبر بوبر أن نظرية تارسكي في الصدق قد شكّلت تحوّلا كبيرا في فلسفة العلوم التجريبية، حين أعادت لنظرية التناظر في الصدق المطلق أو الصدق الموضوعي اعتبارها، وهو ما شجّعه على استعمال مفهوم الصدق بعد تجنبه طويلا، بعد مؤاخذته على تركيزيه في فلسفته على المفاهيم السلبية كالنفي والتكذيب أكثر من الصدق. لأن هذا المفهوم يحافظ على موضوعية المعرفة واستقلالها عن الذوات.

من المؤكد أن هناك علاقة وثيقة بين مفهوم "الصدق" و "الواقع" لكن الرؤى حول طبيعة الأول تختلف كثيرا، فبالنسبة لبوبر قد فشلت جميع النظريات الفلسفية في الصدق بسبب خصوصيات اللغة الطبيعية وذلك قبل سنة 1935 أي قبل تارسكي، وقد كان على وعي بذلك، مما جعله يتجنب مفهوم الصدق وبالتالي الكذب، وحاول تأطير فلسفته العلمية دونهما، واستعمل "مقبول" و "مرفوض" بالنسبة للقضايا الجزئية والنظريات، أي، بدل أن نقول عن نظرية ما T أنها كاذبة يمكن القول أنها قد تناقضت مع مجموعة العبارات أو

* ـ كانت هذه ترجمة محمد محمد قاسم، كارل بوبر: نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، ص 195.

القضايا الجزئية المقبولة وبالتالي هي مرفوضة، ولم يذكر بوبر كيف يمكن أن نقول عن نظرية ما أنها صادقة، وهذا ليس بغريب لأنه يتوافق ونزعته التكذيبية، وكان بوبر قلقا جراء شعوره بالعجز على مواجهة فكرة أنه إذا أردنا أن نتكلم عن الصدق فيجب أن نكون قادرين على إعطاء معيار له، إلى أن علم حول نظرية Tarski "مفهوم الصدق في اللغات المصورنة"، وأخذ فكرة الصدق الموضوعي لتكون فكرة تنظيمية ابستيمولوجيا (Keuth، 2005، ص ص 139-141).

يرى بوبر حسب مسلمته الأساسية بعدم عصمتنا، واحتراما لهدف العلم الذي هو البحث عن الحقيقة، أن تكون فكرة الصدق أو الحقيقة مبدأ تنظيمي حيث يتسق ذلك مع أهمية الخطأ ويجعل النقد العقلاني ممكنا، فنكتشف أخطاءنا ونستبعدها لنقترب من الحقيقة، لذلك فإن فكرة الخطأ واللاعصمة تستدعيان فكرة مثالية الصدق الموضوعي كما اقترحها بوبر مبدأ تنظيميا يحكم جهودنا المعرفية، ويكون التكذيب هو الأنسب لحل المشكلات العلمية (Rivet، 1983، ص34). فنحن لا نعرف أبدا متى تكون نظرية ما صادقة، وكل ما يُمْكن معرفته هو أنها يمكن أن تكذب، وبما أن هدف العلم هو البحث عن الحقيقة أو الصدق يجب أن يتضمن ذلك بعض الشروط الابستيمولوجية والمنطقية، فالصدق المطلق غير متاح، عكس الاقتراب منه، لأنه ليس لدينا دلائل وحجج قويّة بما يكفي لنصل إلى الصدق أو اليقين، لكن يمكن أن يكون لدينا من الحجج والأدلة العقلية لأن نقول أننا حققنا تقدما نحو الحقيقة، بالتكذيب واستبعاد الأجزاء الخاطئة (Rivet، 1983، ص ص 35،36).

وعليه يعتبر بوبر أن مشكلة الابستيمولوجيا الأساسية هي مشكلة نمو المعرفة والعلمية منها بخاصة، وعلى ذلك الأساس تساءل بوبر كيف يمكن أن نعرف أن تراكم العلم هو تقدم وليس تماد في الخطأ، فالنظريات الخاطئة لا تطابق الواقع حتى وإن طبقت بشكل صحيح، ولهذا اقترح بوبر فكرة ترجيح الصدق verisimilitude أو الاقتراب من الصدق approach to the truth أو similarity to the truth حيث يرى أن أصلها هو مفهوم مطابقة العبارة العلمية مع الوقائع، واعتبر نمو المعرفة هو نتاج الاقتراب التدريجي لنظرياتنا نحو الصدق حيث تكون النظرية الأكثر تفسيرا للواقع والأكثر حلا للمشاكل هي الأَوْلى علميا، وهنا يُظهر التنافس بيْن النظريات، فالأفضل هي الأقرب إلى الحقيقة، ولهذا كان الصدق معيارا تنظيميا

للمفاضلة بين النظريات العلمية في مدى تطابقها أكثر مع الواقع، وتكون هنا العقلانية النقدية هي المحرك التكذيبي التصنيفي. ويوضح بوبر أن فكرة الاقتراب من الصدق أو ترجيحه هي عبارة عن بناء منطقي يتكون من تصوّرين؛ تصور الصدق وتصور المحتوى المنطقي للقضية، حيث يعبّر هذا الأخير عن كل القضايا التي يُمكن أن تُستنبط من القضية الأصلية، وينقسم هذا المحتوى المنطقي لقضية ما إلى قسمين؛ قضايا صادقة تعبّر عن محتوى صدق القضية truth content، وقضايا كاذبة تعبّر عن محتوى كذب القضية falsity content، ويُمكن أن تُستنبط قضايا صادقة من قضية ما كاذبة هي عبارة عن محتوى صدقها، وبذلك يعرّف بوبر رجحان الصدق في قضية ما بأنّه عبارة عن زيادة في محتوى صدقها ونقص في محتوى كذبها (Rivet، 1983، ص37).

ويلخص بوبر كيفية اختبار رجحان الصدق وذلك بفرض نظريتين T_1 و T_2 حيث تمثّل الأخيرة تجاوزا للأولى وأقرب إلى الصدق وأكثر مطابقة للوقائع، فيُمكن أن نعبّر عن هذا التدرج في الصدق ونرجح الأفضل كما يلي (Popper، a 2000، ص 232):

1- تزوّدنا T_2 بتقرير أدق من T_1، وهذا التقرير الأدق يصمد لاختبارات أكثر.

2- تشمل T_2 أكثر عددا من الوقائع، تصفها وتفسرها بتفصيل أكثر من T_1.

3- تجتاز T_2 الاختبارات التي فشلت في اجتيازها T_1، كما تفترض اختبارات تجريبية جديدة وتجتازها حيث لم تفترض T_1 هذه الاختبارات ويمكن أن لا تجتازها.

4- أوضحت T_2 ترابط ووحدة عدة مشكلات لم تكن تبدو كذلك في إطار T_1.

ولما كان المحتوى يلعب دورا هاما في تحديد رجحان الصدق فإن بوبر (a 2000، ص 234) اقترح الصيغة التالية:

$$Vs(a) = Ct_T(a) - Ct_F(a)$$

حيث ترمز Vs(a) إلى درجة رجحان صدق القضية (a) وترمز $Ct_T(a)$ إلى محتوى صدقها و$Ct_F(a)$ إلى محتوى كذبها، ثم يعترف بوبر بأن رجحان الصدق غير كاف إذا ما أُخِذ فقط من ناحية المنطق، حيث يكون أكثر فعالية في النظريات المتنافسة، فتكون نظرية ما T_2 أقرب إلى الصدق إذا وفقط إذا كان محتوى صدقها أعلى منه في النظرية T_1، وكانت T_2 تصحح على الأقل جزءا من محتوى كذب T_1، وعليه فإن بوبر يرى أن رجحان الصدق ليس مفهوما ابستيمولوجيا فهو لا يساعدنا في تحديد القضايا الصادقة بل في

الاقتراب من الصدق، فبحسب بوبر ليس هناك معيار للصدق المطلق، وفكرة الرجحان هذه ما هي إلا تفسير منطقي لما نقصده بأن نظرية ما أقرب إلى الصدق من غيرها، ولهذا فتطبيق درجة رجحان الصدق يقتصر على النظريات التي يمكن مقارنتها، وبوجه الخصوص على النظريات المتنافسة (Popper، 2000 a، ص 234).

3. فكرة نمو المعرفة وتقدمها باتجاه الصدق

قبل أن يناقش بوبر (Miller، 1987، ص162) موضوع نمو المعرفة العلمية يرى أن العلم كنشاط عقلاني يهدف أساسا إلى إيجاد تفسيرات مرضية حول تساؤل أو مشكلة ما، ثم يشرع في تعداد الشروط الابستيمولوجية حول هذه التفسيرات لتحقق الرضا؛ وفي كتابه **حدوس وتفنيدات** يرى أن النمو أو التقدم هو خاصية للمعرفة العلمية فيقول: " إن هدفي هنا هو أن أؤكد إحدى مظاهر أو خصائص العلم، وهي حاجته للنمو، أو قل إذا شئت التقدم... كما أؤكد أن النمو المستمر مهم وضروري للمعرفة العلمية بطبيعتها التجريبية والعقلانية، أي إذا توقف العلم عن النمو فهو حتما قد فقد هذه الخاصية، فطريقته في النمو هي ما يجعله عقلاني تجريبي، فهي الطريقة التي يفاضل بها العلماء بين النظريات ويختارون الأفضل، وهي الطريقة التي يقدمون بها الأسباب لرفض كل النظريات المتاحة، وبذلك يقترحون الشروط كيف ينبغي أن تكون النظرية المرضية." (Popper، 2000 a، ص 215)

ثم يضيف بوبر: " وعلى الرغم من أني سأقتصر في مناقشتي هذه على نمو المعرفة العلمية، إلا أني أعتقد أن ملاحظاتي أو آرائي قابلة للتطبيق – بدون تغيير كبير– على المعرفة قبل العلمية أيضا، أي على النحو العام الذي يكتسب به الإنسان كما الحيوان حقائق معرفية جديدة حول العالم الخارجي، إنها طريقة المحاولة والخطأ طريقة التعلم من أخطائنا، والتي تبدو هي نفسها سواء مارسها الشامبانزي أو رجل العلم، كما أن اهتمامي هنا هو ليس نظرية للمعرفة العلمية فحسب بل نظرية للمعرفة في عمومها." (Popper، 2000 a، ص 216).

رأينا كيف أن فلسفة بوبر تسير وفق محطّات بحيث تمثّل أجزاؤها تكاملا فيما بينها، تحت لواء العقلانية النقدية التي تهدف إلى الإجابة عن السؤال التالي: ما الذي يجعلنا نختار نظرية ما دون الأخرى؟ بحيث يكون هذا الاختيار نموا وتقدما وليس فقط تغيرا معرفيا، وأقول

هنا ليس فقط تغيرا لأن بوبر على خلاف الفلسفات الأخرى التي درست تغير المعرفة العلمية تاريخيا، ولم تفرق بين التطور والتقدم والتغير في تفسيرها لحركة العلم في التاريخ، ويكون بذلك التقدم خاصية مميزة للمعرفة عند بوبر يضفيها الباحث بعقلانيته النقدية أي أن المعرفة العلمية ذات طابع تقدمي في حالة انفتاحها على النقد ضمن شروط معينة للموضوعية، حيث يقول في تصديره للطبعة الانجليزية لمنطق الكشف العلمي: " إن الإشكالية المحورية في الابستيمولوجيا لطالما كانت ولا تزال إشكالية نمو المعرفة. ويمكن أن يدرس نمو المعرفة بأفضل ما يكون بدراسة نمو المعرفة العلمية." (Popper، 2005 a، ص xix) حيث يُعرِّف بوبر هذا النمو بمعنى التقدم، أي لا يعني تراكم الملاحظات ولكن هو تنقيح مستمر للنظريات العلمية لاكتشاف أخطاءها ومن ثم التقدم نحو الصدق (Rivet، 1983، ص1).

إن خاصية التقدم والنمو في المعرفة العلمية بطابعها التطوري جراء النقد، استقاها بوبر من مقاربة التطوّرية الداروينية، لتوضيح الفكرة المحورية في فلسفته العلمية، فهو يرى أن البحث متصل ويبدأ دوما بمشكلة هي في العادة دحض لنظرية أو فرض أو توقع قائم، ثم البحث عن حل جديد، ويقارن بوبر عملية الكشف عن النظريات والحلول المؤقتة للمشكلات التي تواجهنا، بالتحولات الوراثية لدى كل الأنواع الحيوانية، لأن المعرفة في نظره نشاط أو سلوك واحد يعتمد عليه الكائن الحي سواء كان آينشتاين أو أي نوع من وحيدات الخلية، فالعسل أو خيوط العنكبوت هي نظائر لما ينتجه الإنسان لحل مشاكله، ومع أن هذا النشاط المعرفي عند الإنسان يسير وفق حلقات متتالية تبدأ بمشكلة وتنتهي بمشكلة، إلا أنها ليست دائرية بل تنتهي بمشاكل جديدة تتطلب حلولا جديدة، ومن ثم فنمو المعرفة يتقدم باستبعاد الأخطاء Elimination of Errors ويمكن توظيف صيغة بوبر لتوضيح ذلك (Popper، 2000 c ص ص 10-12):

$$P_1 \longrightarrow TT \longrightarrow EE \longrightarrow P_2$$

حيث تعني P_1 (problem1) المشكلة التي ننطلق منها والتي قد تكون مشكلة عملية أو نظرية، و TT (tentative theory) تعنى الحلول أو النظريات المؤقتة التي نُعرّضها بعد ذلك لكل الاختبارات الشاقة المُمْكنة، وهذا في إطار عملية استبعاد الخطأ EE (Elimination of Errors) التي تقودنا لصياغة مشكلات جديدة P_2 مصدرها نشاطنا الإبداعي أو الخيال العلمي، ويشكّل هنا الوعي الفرق بين التطور البيولوجي ونمو المعرفة،

لأن إزالة الخطأ لا تعني القضاء على أولئك الذين انطلقوا من فروض خاطئة مثل ما يحدُث عند الحيوان، فبفضل العقل والوعي أي النقد يمكن للإنسان العُدول عن الخطأ وتعديله، وهي صيغة تعبّر عن الصّراع بين النظريات المتنافسة أين يكون البقاء للأصلح والأفضل (Popper، 1994 ص261) أين تتمو معارفنا بالنقد العقلي متّبعين في ذلك منهجا استنباطيا يمثّل التعزيز التجريبي فيه خطوة وليس معيارا أو منهجا، وبذلك تُنَقّحُ معارفنا لتقترب من الصدق، وهذا هو معنى النمو عند بوبر أساس التقدم نحو الصدق وليس بتراكم الملاحظات والتعزيزات الجزئية ثم تعميمها.

يحاول بوبر إرساء أسس متينة لأفكاره الابستيمولوجية، وذلك على أسس منطقية ومنهجية، فهو لمّا يتكلم عن خاصية النمو في المعرفة وكأنه يحاول أن يقول أنها صفة جوهرية لاسيما عندما يكرر ويعيد دوما أننا نتعلم من الخطأ ثم يذكر اللاعصمة والتي هي خاصية فطرية لاسيما للمعرفة الإنسانية، أي أنه بذلك يرمي إلى أن الخطأ فطري، وبالتالي التكذيب هو المنهج لأنه من جنس الموضوع الذي هو المعرفة، وكأنه يقول أن المعرفة ضمن طريقة التعلم من المحاولة والخطأ تنزع إلى النمو، وهي خاصية جوهرية إن لم نقل فطرية يثبتها النقد بالنسبة للمعرفة العلمية؛ وفي هذا المستوى فإن الإنسان هو من يؤطر مناهجه للاقتراب من الصدق أو بتحقيق تراكمات وتعزيز بالنقد والتكذيب.

1.4 نمو المعرفة والنقد

وعلى أساس ما تقدم يجعل بوبر النقد محورا لفلسفته ومطلبا ضروريا ابستيمولوجيا لتقدم أي نشاط معرفي، فكل معارفنا عبارة عن نظريات منقّحة تتضمن ملاحظاتنا الأولية، وقد وجد الاهتمام بالنقد ودوره في تنمية معارفنا منذ القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد مع الفلاسفة اليونان قبل سقراط، خصوصا مع المدرسة الأيونية، التي عبّرت عن العقلانية النقدية بمناقشة الخرافات والأساطير السائدة آنذاك ودحضها، وعلى هذا الأساس فإن نمو العلم يتطلّب إعادة النظر ونقد معارفنا السابقة.

ويرى بوبر أن النمو أو الزيادة في المعرفة هو نتاج لنقد ما يمليه الحس العام المشترك على أنه حقيقة، وأن نمو المعرفة العلمية يكون أفضل ما يكون بتقديم فروض تُبنى بطريقة تجعلها قابلة للنقد، ولذلك كانت فلسفة بوبر في نمو المعرفة ناقدة لعدة لمفهوم العلم في

الابستيمولوجيا التقليدية، وأوضحت العلاقة المنطقية والمنهجية لمفاهيم جديدة متكاملة فيما بينها، مثل النمو، النقد، التغير، اللاتبرير، واللااعتقاد، فهذه الخصائص الثلاث الأخيرة تتماشى منطقيا ومنهجيا مع النمو والنقد، لأن النمو يتحرك في عمومه بالمحاولة والخطأ، ثم يصبح منظما ومقصودا في مستويات أعلى من الوعي بالنقد والتكذيب، وهو ما يحقق المعرفة الموضوعية بيْن-ذاتية inter-subjective الطابع، ولذلك عكف بوبر على تمييز المعرفة العلمية في بداية أمره ورفض بشكل قاطع أي نزعة استقرائية كمبدأ لتفسير ووفهم نمو المعرفة (Sceski، 2007، ص ص 07-17).

ويفسر بوبر التقدم العلمي بالنقد، فهو يبدو ضروري منطقيا إذا جئنا إلى التسليم بعدم عصمة الإنسان، كما أن النقد يبرز ثورية التقدم العلمي والكشف، ويمثل تكذيبا للفروض المطروحة، في حين أن الاستقرائية كمنهج تفسر التقدم العلمي بتراكم النظريات باستمرار على أساس التحقيق (الخولي، 2000، ص353). ومن هذا نرى أن النقد في مستوى معين من الوعي بالعملية المعرفية ذات الطبيعية التطورية هو حجر أساس ومحرك فعال وضروري منطقيا ومنهجيا لها، أي في عملية نموها واستمرارها، فبدونه لا يمكننا كشف الأخطاء واستبعادها، والحياد عن اتجاه التقدم نحو الصدق.

2.4 المطالب الثلاثة لنمو المعرفة عند بوبر

بعد ما ناقش بوبر مفهوم المحتوى ورجحان الصدق في الفصل العاشر من كتابه "**حدوس وتفنيدات**" ينتقل بوبر في نفس الفصل ليقترح ثلاث مطالب أو شروط لنمو المعرفة، وبذلك كان مطلبه الأول هو أن نظرية ما جديدة، يجب أن تنبع من فكرة موحدة جديدة وبسيطة، حول علاقة بين عناصر لم تكن على علاقة من قبل، أو حول وقائع أو فروض جديدة (Popper، a 2000، ص241).

ويضيف بوبر المطلب الثاني بأنه يجب أن تكون النظرية الجديدة قابلة للتجريب بشكل مستقل independently testable، و يقصد أنه بخلاف أن تفسر القضايا والعلاقات التي فسرتها النظريات السابقة، فيجب أن يكون لها نتائج تفسيرية جديدة أي محتوى معرفي تفسيري أكبر من سابقتها يُفْضي إلى نتائج تجريبية أوسع، وإلى قدرة تنبئية أكبر، وبالتالي تتمو معرفتنا الحالية مما يؤدي إلى مشكلات جديدة تحتاج هي الأخرى إلى حلول أو فروض تفسيرية (Popper، a 2000، ص ص241-242).

أما المطلب الثالث فيرى بوبر أنه حتى تكون نظرية ما جيدة ومقبولة في الوسط العلمي فهي يجب أن تتجاوز –على الأقل لمدة من الزمن– اختبارات تجريبية قاسية أي محاولات التكذيب، لاستئصال أجزائها الخاطئة ودفعها للتقدم نحو الصدق، بمعنى أنه يجب أن تحافظ على أفضليتها بين منافِساتها، ويقول أن الفرق بين المطالب هو أن الأوليين من الجانب النظري –المنطقي– أما الثالث فهو مادي يمكن ملاحظته بسهولة من خلال التجريب، (Popper، 2000 a، ص242).

4. توظيف فكرة اللاعصمة والخطأ ابستيمولوجيا

إن الخطأ فطرة في الإنسان وهو قدَرٌ لا مفر منه وعلى هذا الأساس كان لابد من أخذه بعين الاعتبار وتوظيفه في أي منهج علمي كضرورة ابستيمولوجية، وأيُّما تجاوز له يعد تجاوزا لطبيعة العملية التقدمية للمعرفة عامة والمعرفة العلمية خاصة، وبالتالي كان إغفاله إسقاطا لمرحلة ضرورية منطقيا وواقعا، هذا وبالإضافة إلى حضوره الواسع ضمن تاريخ العلمية التقدمية لمعارف الإنسان، وعلى ذلك الأساس كان من المنطقي أن يكون الصدق شيئا نسبيا وأفضل ما يمكن التعامل به هنا في ظل هذه الحقائق هو ما جاء به بوبر من عقلانية نقدية وتكذيب (أي توظيف الخطأ منهجيا) واستبعاد للأخطاء والمفاضلة بين النظريات والاقتراب من الصدق، إنها بذلك حبكة منهجية منطقية واصفة لعملية نمو معارف الإنسان التطورية في طبيعتها.

يقول بوبر في خاتمة **المجتمع المتفتح** بأنه على وعي تام بنقائص العمل الإنساني في مجال المعرفة وغيرها من النشاطات، وذلك لوعيه بلاعصمة الفرد البشري، ويصرح بتبنيه لهذه النزعة أو المذهب fallibilist، وبأن لهذه المقاربة الكثير لتمنحه للفيلسوف والعالم خلال ممارسته وتعامله مع موضوعاته المعرفية، بإدراكه للطابع الجوهري النقدي والتطوري للفكر الإنساني (Popper، 2013، ص510).

أما في كتابه "**حدوس وتفنيدات**" فيؤكد أن مجموعة المقالات والنصوص المجموعة فيه تدور من زوايا مختلفة حول موضوع محوري في فلسفته بأننا يمكننا التعلم من أخطائنا، وما عملية المعرفة سوى طريقة التعلم من المحاولة والخطأ، وعلى ذلك الأساس تُبنى نظرية المعرفة ونظرية تقدمها ونموها، حيث تؤكد على عدم عصمة معارفنا، حيث رأى بوبر أن

خطأ العقلانيات والفلسفات الغربية السابقة في نظرية المعرفة أخطأت في منطقها التبريري والمصدري السلطوي، ورأى أن هذه الإشكالية قد حُلت من أيام ديمقريطس وسقراط، ويقوم ذلك على إدراك أننا عرضة للخطأ أفرادا وجماعات، وهو ما يستدعي فكرة المعرفة الموضوعية، على أن ذلك لا يعد ابستيمولوجيا تشاؤمية بقدر ما هو مذهب يتضمن البحث عن الصدق الموضوعي بدل احتمال إضاعته على الهامش، وبأننا إذا كنا حقا نقدّر الصدق الموضوعي في المعرفة فيجب البحث عن أخطائنا بإصرار لاستبعادها وإبقاء الجزء السليم من معارفنا بالنقد العقلاني والنقد الذاتي، ف بما أن ذلك الجزء طبيعي في الإنسان أي الخطأ، فقد وجب معرفة كيفية تجاوزه والتعامل معه للاقتراب من الحقيقة، ويظهر ذلك في عبارة لفولتير يجيب فيها عن السؤال: ما هو التسامح؟ فيقول: هو نتيجة ضرورية لإنسانيتنا، فنحن جميعنا لا معصومون وعرضة للخطأ، ودعونا –على الأقل– إذن مغفرة ومسامحة حماقة بعضنا البعض. وهذا هو أول مبدأ –لفهم– للحق الطبيعي (Popper، 2000 a، ص صvii ، 16) .

خاتمة:

رأينا كيف تصور بوبر المعرفة بشكل مخالف للفلسفات التقليدية ليؤسس ابستيمولوجيا للعقلانية النقدية كمنهج، ثم لينطلق في نسقه 'لى أسس منطقية ومتطلبات منهجية بداية من نظرية العوالم الثلاثة والمعرفة الموضوعية إلى نظرية الصدق الموضوعي واستعمال بوبر لنظرية تارسكي لتبرير الخطأ ثم اتخاذه كمبدأ تنظيم، ليجعل من طبيعة المعرفة العلمية النمو وبذلك تقدمها باتجاه هذا الصدق انطلاقا من النقد العقلاني المتمثل في وهو ما جعله يوظف فكرة اللاعصمة والخطأ بضرورة منطقية، والتي لا مفر منها، حيث أخذها بوبر بعين الاعتبار في بناءه الابستيمولوجي للمنهج العلمي، لأن الوعي بهذه الخاصية الإنسانية هي ما يقوده إلى النقد العقلاني بين الذاتي ثم الاقتراب نحو الصدق الموضوعي الذي يمثل عند بوبر فكرة تنظيمية لعملية البحث العلمي. ومنه يمكن القول أن بوبر قد نجح إلى حد بعيد ليؤطر ويؤسس لمنهجه العلمي وفلسفته العقلانية النقدية التكذيبية على أسس ابستيمولوجية ومنطقية، كما زود بنظرية تفسيرية تاريخية ومنهجية لحركة تاريخ العلم.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- *Popper. K, (2000a), Conjectures and Refutations, London: Routledge.*
- *Popper. K, (1995), A World of Propensities, England: Thoemmes Press.*
- *Popper. K, (1994), Objective Knowledge: An Evolutionary Approach, Oxford: Clarendon Press,.*
- *Popper. K, (2000c), Knowledge and the Body-Mind Problem, London: Routledge.*
- *Popper. K, (1997), The Myth of the Framework, London: Routledge,.*
- *Popper. K, (2013),The Open Society and its enemies, New One-Volume Edition, Princeton University Press.*
- *Popper. K, (2005b), Unended Quest: An Intellectual Autobiography; London: Taylor and Francis e-Library.*
- *Popper. K, (2005a), Logic of Scientific Discovery, London: Taylor & Francis e-Library.*

المراجع:

- أغبال، أحمد، (2007)، ألفريد تارسكي كانط والحقيقة: مفهوم الحقيقة من النقد الكانطي إلى نظرية تارسكي، [http://sophia.over-blog.com/article-4425722.html]. 2017/04/29. 13:01.
- مذبوح، لخضر، (2009)، فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- قاسم، محمد محمد، (1976)، كارل بوبر: نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- *Irzik. Gürol, (2008), "Critical Rationalism", The Routledge companion to philosophy of science, edited by Stathis Psillos and Martin Curd, Taylor & Francis e-Library,.*

- *Gattei. Stefano, Karl Popper's Philosophy of Science Rationality Without Foundations, London: Routledge,2009.*
- *Simkin. Colin (1993), Popper's views on natural and social science, Brill, Leiden,.*
- *Rivet. Marie-Andrée, Critical Rationalism and Normal Science: A Proposed Resolution of The Popper/Kuhn Controversy and its Implications for The Sociology of Science, (Thesis submitted in partial fulfillment of the requirement for the degree of master of arts), B.A. Simon Fraser University, 1983.*
- *Sceski. John. H. (2007), Popper, objectivity and the growth of knowledge, London: Continuum International Publishing Group.*
- *Miller David, (1987), A Pocket Popper, Second Edition, Great Britain: Fontana Press.*